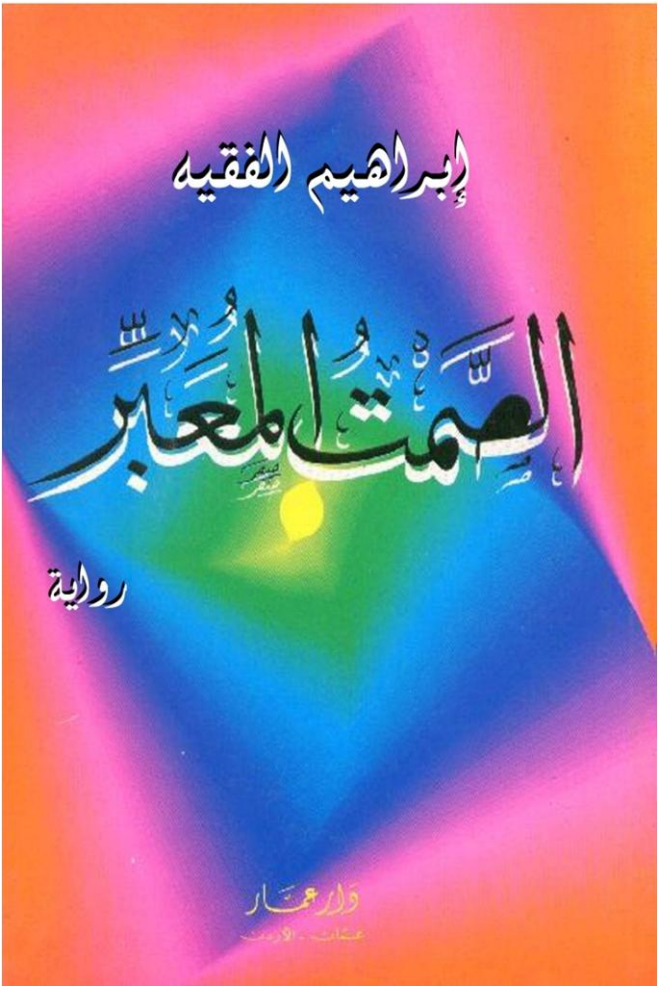

إبراهيم الفقيه

الصمت المعبر

رواية

دار عمار
عمان - الأردن

إبراهيم الفقيه

الصمت المعبر

The expressive silence

رواية

جميع الحقوق محفوظة

ضمير

شاهد "عمران" يكبر دفعة واحدة..
لم يعد للربيع فصل في حياته بعد أن غيبه الخريف..
هو الشيخوخة في صعودها المغتصب من العمر.
هو العقل في استحكاماته التي يدقها متاريساً حول العاطفة.
وهو الرغبة في لحظة الكبح المقتنع، المتوقف، بعد أن فسح للبياض مساحة كبيرة في شعره، وفي قلبه أيضاً..

كان يعاني.. يفكر أياماً ويتخذ قراراته في ساعات..

سأله "أبو الشباب": هل هذا قرارك النهائي في دورة الحياة؟!
أجاب عمران "بل حياتي المستقرة فيما تبقى لي من عمر".

يوم التقاه في المرة الأولى كان في ريعان شبابه، الفجر يتدفق من عينيه.. العزم يتلبسه، والإرادة تقطن في أعماقه..

كان ذلك قبل سنوات قليلة.. لكنها في عمر الزمان طويلة جداً.

يوم أن التقى به ثانية قبل أيام.. زاغت نظراته، شك في بصره، وهو يراه عجوزاً بوجه مجعد ولحية كثة بيضاء، وكأنه قد جاوز الثمانين من عمره.. تأمله طويلاً قبل أن يتعرف عليه.. إلا أن الأخير ببصيرته، وبعينيه الثاقبتين عرفه من النظرة الأولى..

كان يتأمله فلا يرى سوى نظرات تائهة تتهاوى هنا وهناك، ومن خلال تعابير وجهه، شاهد معاناته تكبر، يتألم للرفاق الذين فقدهم واحداً بعد الآخر..

بالأمس كان يحلم، وحين بدأ يعاني تنبه إلى غده، لا يريد أن تفوته الفرصة ثانية، ولا يحب التمتع بالذكريات.. يحاول أن يثبت وجوده قبل أن يصل إلى منتهاه..

هكذا قالت، أو كانت تقول عيناه..

قال عمران بعصبية: أريد أن اعرف كيف يستطع الإنسان في لحظات اللاوعي أن يغسل مرآة وجدانه بحبات البرتقال وأغصان الزيتون وأطفال الحجارة؟!.

لم يفهم أبو الشباب شيئاً..

تابع عمران وكأنه يحدث نفسه: ذلك ما أريد اكتشافه بعد عملية الجزر والانكماش والتقوقع بتجربة لم أعرف قيمتها وتأثيرها في نفسي، لكنها صهرتني في أجواء يشوبها الغموض، حتى أصبح اللاوعي يقودني إلى معالم من الهشيم والضباب في صحراء رمالها متحركة..

تركه أبو الشباب يتحدث، وشرع يتأمله من جديد..

كان عمران يتجسد بصور غامضة، لا تلبث أن تتوضح معالمها.. يعاني من قضية تثقل كاهله، مصير أجيال ومعاناة وطن.

إنسان غامض وواضح في آن، رافض للضعف والانهيار..

قضيته، قضية الشباب ذو الرؤى المختلطة الفواصل والألوان والأوجه، تؤثر فيه بقدر تحكمها ويقينه فيها.

مرآته كانت قاتمة، بشعة الألوان، وخيوط من القلق والسوداوية واللامعنى تعبرها.. ومع ذلك يجاهد بكل دقائق عمره ليجعل منها مرآة مشرقة يرى من خلالها مستقبلة، ويحيل خيوط النسيج تفاؤلاً وانشراحاً..

أمام بوابة النسيان، توقف أبو الشباب عن التأمل.. حاول أن يطرد قصة عمران إلى داخل عمره، يعيش فيها ويلاحقه حتى النهاية.. قال له: أنت سرقت الحضور

إلى جزر النسيان، سرقت الأمل وحوّلته إلى لحظات يأس، انتظار الفجر غدا في حياتك أمسيات حزينة..

تنهد عمران وكأنه لم يسمع، قال: كنت ورفاقي نعيش في عالم غير عالمنا، لم يكن لنا إرادة..
قاطعه أبو الشباب: هل تدرك ما تقول؟.

أجاب عمران وهو يتأمل الأفق البعيد:

- غيبتي لم تمتد إلا لسنوات قليلة، لكني شعرتُ أنها مائة عام وأكثر.. كنت عند أمسياتي أردد النغم الذي عانق الأفواه لسنوات طويلة، وشباب الثورة يرددون أن النصر لن يكون لغيرهم، لأنهم يؤمنون بقدسية عملهم، يؤمنون بمعطياتهم التي يقيمون الجسور عليها ويُعبّدون بها الطرق.. يؤمنون بأن ثورتهم لن تتوقف لأنهم أصحاب حق.. خيانة الوعد قد تهون، لكن أن تخون رفاق العمر والوطن فهذا هو الفناء الحقيقي للحياة..

قاطعه أبو الشباب ثانية وقد عزم أن يضع حداً لتأوهاته:

- إذا كان الندم قد حل محل ملابسك.. فلماذا لا تعود تائباً مشيداً درع المسيرة؟
- أنا عائد.. لكن القدر أراد لي أن أقابلك قبل عودتي، لأزيل عن كاهلي حكايتي، وأروي لك قصتي كاملة.

- القصص لم يعد لها نفع هذه الأيام.. الأعمال تشهد على صدق فاعلها فقط..
- إذن دعني أولاً أتكلم، وعليك أن تسمعني حتى النهاية..
- أنت إنسان تخاف من الغد.. تفكر في الصباح الجديد، وأنت في حالة تراجع.
- كيف ذلك؟ إني أحاول جاداً أن أجعل مرآتي محدبة.
- الخوف في طفولتك يجعلك تهرب من مستقبلك، تريد أن تلتزم فتتخلى، تفعل فترتد، تخطو فتتراجع.

انتفض عمران وقال: ومن أنت حتى تعريني أمام نفسي خارج حدود المكان والزمان؟.

- أنا لحظة عاصفة مجنونة تستحوذ على كل تفكيرك بعتاب وتأمل..
- أنت تثير أعماقي.. لست كل زمني، إنما لحظة ملأت الفراغ في جزء من حياتي..
- وما الذي بقي لك من زمنك؟
- الأمل هو الذي يشدني إلى الدفاع عن الذي غذى روحي، وملأ عمري بالشجن والصبر والتجربة والألم والحقيقة.. الشعور بالوفاء هو حقيقة الفرح الذي نركض خلفه، لنتجدد في الحياة..

تركه أبو الشباب يتحدث.. لم يجد لكلامه نهاية.. بدا متأوهاً متأففاً من الماضي، وبنظرات من الثقة والأمل

بدا مقبلاً على غده.. فقال يستفزه: لقد طال مكوثك هنا، كغيبتك!..

- لقد بدأت من النهاية، وعليك أن تصغي، فقد ضاع الوقت وأنا على عجلة من أمري..
- إذن هات ما عندك.. وابدأ بالحديث من يوم أن فارقت شبابك، من يوم أن ضعت في العالم الذي تعثرت فيه أقدامك، وبقيت آثار الندم عالقة بثيابك حتى اليوم..

نظر الشيخ عمران إلى البعيد وقال: كان ذلك منذ سنوات قليلة أضاع الزمن عددها من ذاكرتي..

شعر أبو الشباب أن هموم عمران صرخة.. معاناته دموع لها نشيج، وتعبيره زحام شديد.. وبصوت أسيف، كسيف النبرات، بدأ عمران يتحدث..

****

مؤامرة

أتعرف يا صديقي، أن صرخة الطفل حين يولد هي قمة النشوة، تعبير عن الخروج من القيد.. الحياة في تلك اللحظة أمل، طفل يرضع، يناغي، يمشي، يكبر ويكبر.. لكن المأساة أن يفاجأ هذا الطفل بجندي عربي يحمل رشاشاً ليجهض أحلامه، ويمنعه من الوصول إلى عدوه الذي قتل والده واغتصب حبيبته.

لقد ولد "سرجون" من بين قواميس التعب، وانطلق يكتب في دفاتر الحياة أسطورة العشق برصاصة حمراء على لوحة الزمن.. تبنتها الأيام وأخرجتها على مسرح الحياة بيد ثائر نحو النور والشمس.

بدأت الحكاية يوم أن انبثق الجذر من الأرض، أنبت عمالقة قاماتهم مرتفعة كجبال شامخة حتى السماء، جذورهم مغروسة في باطن الأرض، صامدة أمام عصف الرياح في كوكب يدعى "تل الهواء".

في تل الهواء، حيث تجمع العمالقة وعاشوا مئات الأعوام بين النور والمحبة.. يفلحون الأرض، ويغرسون أشجار الزيتون والفواكه والحمضيات.. أفاقوا ذات يوم،

وإذ بمجموعات من الخنازير البرية يملؤون كوكبهم، يأكلون قوتهم، يدمرون بيوتهم ومحصولهم، وينغلون في أجسادهم.

في البداية، لم يدر العمالقة ما الذي هز كوكبهم ودمّر تلّهم.. فتاهوا في طرق القضاء على الخنازير.. وحين أفاقوا من دهشتهم، كانوا قد خسروا كل ما يملكون.

تلك بداية حكاية العمالقة وزعيمهم سرجون.
هكذا تقول أسطورة التاريخ الذي لم يكتب، ولم يستطع الزمن تغييره..

سرجون كان نائماً في الحقل تلك الليلة، تتوسد ذراعه حبيبته "جوهرة"، سارحاً عبر أحلامه.. هبّ من نومه مذعوراً على استغاثات بني جلدته وصراخهم.. كانت الخنازير قد اجتاحت الكوكب وسيطرت عليه.. فتكت بالشيوخ والنساء والأطفال، وشردت من الرجال من لم تستطع اللحاق بهم.

في ظلام الهزيمة، نالت الخنازير أيضاً من حبيبة سرجون جوهرة، ركع تحت ضوء القمر المهزوم.. مدد جسدها، مزجه بدموع غيمة شاردة، سكب عليه عطر زهرة بدأت تتفتح مع نور الصباح، وحاول بكل ما أوتي من قوة أن يدفنها في نار قلبه المتأججة.

طاردته الخنازير حتى نهاية الحقل، زحف على بطنه، التجأ إلى غابة قريبة، وجد نفسه وحيداً.. صارع الأغصان ليفتح مخرجاً.. تحولت أغصان الغابة الكثيفة إلى ما يشبه السواعد الأخطبوطية، والسلاسل الحديدية، قبل أن يجد نفقاً يتسلل منه إلى النور.

بعد مضي مئات الأعوام من الزحف والالتفاف والركض، أحس أن المتاهة لا نهاية لها، وأن عصابة من الكلاب المسعورة تطارده مع الخنازير.. تُكشر عن أنيابها وتعوي بشراسة، تتقدم وتتأخر وتدور وهو يحاول الهرب.

العملاق الذي أصبح وحيداً في عالم لا يعرفه، انهارت قواه، وفي عالم الرمال المتحركة بدأ يغوص.. تشبّث بالأرض وراح يحفر بأظافره أنفاقاً بدل النفق الواحد.. يتشبث بالجذور، انبثق جذع وتحول إلى بندقية أمام ناظريه.. أخذ يعاني، يتألم والكلاب تعوي، تحولت البندقية إلى قصبة فارغة.. لم تعد تنفع في زمن الخنازير والكلاب المسعورة.. مضت سنوات والعملاق يعاني، أجيال توالدت أجيال.. صراع طويل أستأصل من الأدمغة كل بذور الحب.. كل ذرة تراب طوت تحتها جسداً بشرياً.. تحولت الأيام إلى لعنة، الخنازير والكلاب المسعورة تحولت إلى قِرَدة.. هكذا بدوا أمام عينيه.. اخذوا يتيهون فوق سطح كوكب الهواء، يتسابقون إلى

البـارات، يسـكرون ويغتصـبون، يبيعـون أجسـادهم.. وإن لم يجدوا ما يسكرهم، يبولون ويسكرون.

فـي غمـرة الأحـداث، نسـي سـرجون والدتـه "فـردوس" التـي كانـت تنـام وحيـدة قريـرة العـين فـي كوكـب الهـواء.. وراح يزحف طالباً النجاة لنفسه..

ذات ليـل، هبـت ريـح سـوداء حركـت كـل سـاكن حولـه.. نعـق طـائر يشـبه البـوم، وقفـز إلـى شـجرة قريبـة منـه، وصـرخ علـى مسـمع العمـلاق بـأن فـردوس أسـيرة ومقيـدة فـي مغـارة مظلمـة بـأمر مـن "كالـب" أميـر القـرود والخنـازير، وحـارس مـن مـردة سـليمان يقـف علـى بـاب السجن..

ارتعـش سـرجون فـي منامـه، هـب واقفـاً وراح يتأمـل الطـائر.. لـم يشـاهده، قفـز مـن مكانـه وراح يـركض، أحـس بجسـده يرتفـع عـن سـطح الأرض.. شـعر أنـه يطيـر فـي الهـواء، يتحـول إلـى طـائر ليلـي.. لكـن أحـد الـذين شـاهدوه تلـك الليلـة أكـد أنـه تحـول إلـى شـبح، وأنـه شـاهده بـأم عينيـه يتخفـى عـن حـارس السـجن ويلـج المغـارة التـي تقـيم فيهـا والدتـه.. وقـد أقسـم أنـه سـمع فـردوس تصـرخ وتطلـب مـن سـرجون أن يحررهـا مـن القيـد الـذي أدمـى معصـميها، ودعتـه للـذهاب إلـى أبنـاء عمومتـه وأقربائـه بنـى لخـم وبنـي لحيـان ليسـتنجد بهـم.. وحـين تسـلل سـرجون خارجـاً مـن المغـارة كـان علـى شـكل "عقـاب"، وقـد أقسـم أن يحـرر

والدته من قيدها، كما يثأر لمقتل حبيبته جوهرة، قبل أن يجف دمها عن ثيابه.. وفي الحال راح يحلق في الجو مقهوراً مطعون الفؤاد.

بعد مئات السنين من التشرد والارتحال، وصل سرجون إلى ديار الأقرباء.. في الساحة الكبيرة توقف، رجل ملثم، متوسط القامة، أسمر البشرة، واسع الجبهة، عريض المنكبين، يحمل بيده اليمنى سلاحاً سريع الطلقات، أما يده الأخرى فكانت مقبوضة، ولا يُعرف ما بداخلها.. وملامح التعب والقهر بدت واضحة في عروق عينيه.

تجمهر الجميع حوله، لم يعرفوه رغم وضوح عينيه وصفاء بريقهما، وعندما أماط اللثام عن وجهه، تفرق الجميع وراحوا يهرولون.. لقد خافه الجميع، حتى الأطفال الذين حملوا الحجارة لرجم الغريب الذي حل بديارهم.. ألقوا ما بأيديهم، وراحوا يصرخون.

انفرجت يده المقبوضة عن ورقة خضراء من شجرة زيتون، فاقترب منه شيوخ ذوي لحى طويلة وقصيره بعباءات سوداء، ومن ورائهم بدا رجال يحملون سيوفاً لحمايتهم.. سأله أحدهم عما أتى به إلى ديارهم؟.. فقال بأن الطلقة في سبيل الأرض والحرية لها جمال الوردة، بعبقها، بأريجها وأشواكها.. وأن الرصاصة حين تنطلق عن إيمان وصدق في سبيل تحقيق هدف، واسترجاع

حق نُهب أو أغتصب أو سرق.. لها نفس نشوة الصرخة المنطلقة من فم طفل قادم للحياة.

صمّ الأقرباء آذانهم، وتركوا العملاق يجابه العواصف وحيداً.. وفي بيت كبيرهم تنادى المهرولون، تجمعوا، وراحوا يرفعون الشعارات الكاذبة ويحيكون المؤامرات، معلنين في خباياهم أن زمن الخديعة للفكر والحس وللتخيل بدأ منذ تلك اللحظة.

في البيت الكبير تجمع أهل الرأي الذين لم يروا أشعة النور إلا من خلال ثقوب غربال.. لم يعرف العملاق عددهم، ربما ثلاثة، أو ثلاثة عشر، أم ثلاثة وعشرون.. كما لا يعرف إذا كانوا كلهم اشتركوا في المؤامرة، لكنه كان على يقين أنهم يتآمرون عليه.

في البداية اتفقوا على قتل القادم الغريب في ليل حالك السواد، لكنهم خافوا أن تفتضح فعلتهم، وتسوّد وجوههم أمام من يعرفهم، ومن لا يعرفهم.. وحين فشلت محاولاتهم، ازدادت قوة العملاق، فراح يتطاول نحو النور والشمس، يختلط بالشباب ويدعوهم لنصرته..

في ليلة مظلمة نطق الرأس الكبير وقال للحاضرين: نحن يا سادة يا كرام نعيش في مأزق.. لقد بدأت شعارات العملاق تتغلغل في نفوس الشباب، بعد أن تركناه يشرح موقفه لأبنائنا.. أخطأنا يوم أن قبلناه على

أرضنا.. الأيام تمضي وهو يطحن الشباب الواعي من بني لخم وبني لحيان، ويدعوهم لمناصرته ودعم قضيته.. اليوم، إذا قتلناه لامنا الجميع.. وإذا قربناه، سيطر على جيل الشباب بأكمله بما عنده من مبادئ عشق وحب وتضحية للأرض.. عندها ينقاد الشباب له ويثورون علينا وعلى الكراسي التي قاتلنا طوال أعمارنا من أجل الجلوس عليها..

قفزت من بين الرؤوس جمجمة فارغة وقالت: هذا هو الواقع، فماذا أنت فاعل به؟

قال الرأس بعد لحظة صمت: علينا أن نتظاهر بمناصرته.. وفي نفس الوقت نؤلب الشباب عليه، بعد أن نشوه أفعاله، ونصورها بصور بشعة قاتمة..

قالت جمجمة ثانية: وهل تعتقد أنه صادق فيما يقول؟

قال الرأس: الواقع إن عشق العملاق لأرضه وادعاءه أنه سيحررها ويفك قيد أمه.. هو عشق صحيح لا غبار عليه.. لكن هذا العشق لا يتمشى مع عصرنا هذا.. لقد كان موجوداً في غابر الزمان.. أما اليوم، فالكرسي الهزاز أفضل.. إذا انجرف الشباب في حب الأرض، فماذا يتبقى لنا!، من يحبنا ويصفق لنا!، ومن يخدمنا ويملأ كؤوسنا!؟.

صفقت عظام الأذرع المبتورة لما قال، وانبهرت العيون المجوفة والجاحظة بالأفكار البديعة، وتعالت هتافات الجماجم: "ليسقط حب الأرض، يعيش الرأس للكرسي الهزاز.. الموت لأعداء الرأس"..

انفرج الرأس الكبير عن شدقين واسعين، فصمتت الجماجم، أضاف: لهذا جمعتكم لأقول لكم، علينا أن نغيّر أفكار سرجون.. نسمم أفكاره، نجعله يحب ما نحب ويكره ما نكره..

قاطعته جمجمة: وكيف السبيل إلى ذلك يا سيد بني يعرب؟

أجاب الرأس: علينا في البداية أن نطرح شعارات مناهضة لما يقول، وبالتالي نقربه منا، ونقنعه بتغيير أفكاره ثم نبعده فيما بعد عن ديارنا.

قالت جمجمة أخرى: المشكلة يا عظيم الشأن تكمن في كيفية إبعاده.. فكيف السبيل لذلك؟

قهقه الرأس وقال: لقد فكرت في كل شيء.. فأنتم تعرفون أن الأقزام طردوه من أرضه منذ زمن.. وهذا المكان قريب من أرضه، يذكره بها وبوالدته فردوس، وعندما نبعده بطريق الخديعة، على رأي المثل القائل "بعيد عن العين بعيد عن الفكر"، ننتصر عليه لأنه لن يستطع الوصول إليها من ناحية، ومن ناحية ثانية

سينسـاها بفضـل مـا سـنقدمه لـه مـن سـم دسـم فـي الطعـام وفـي الأفكـار.. فـإذا مـات بعيداً، قلنـا أنـه مـات بسـبب العشـق الجنــوني.. وإذا عــاش لا ســمح الله، ســيعيش بعيــداً دون أن يسمم أفكار أبنائنا..

مــرة ثانيــة صــفقت عظــام الأذرع المبتــورة والهياكــل العظمية.. وطالبت الجماجم بشرح خطة الإبعاد..

أضــاف الــرأس الكبيــر: هــذه أيضــاً بســيطة.. ســنقول لــه بأننـا سـنأخذه عنـد والدتـه أو إلـى مكـان قريـب منهـا.. وأنـتم تعلمــون أيهــا الســادة أنــه يثــق بنــا، لأننــا ملجــأه الوحيــد.. وتعلمون أيضـا يـا سـادة يـا كـرام أننـا غيـر أهـل للثقـة سـواء له أو لغيره.. وعندها سنبعده بعيداً عن ديارنا.

***

هكـذا تـآمروا علـي العمـلاق ودبـروا لـه مكيـدة.. اسـتطاعوا خــلال فتــرة قصــيرة، طــرح أفكــارهم المناهضــة، اقنعــوا الكثيـر مـن الشـباب المـوالين لهـم بـأن العمـلاق يحمـل وبـاء فتاكـاً.. وأن كالـب أميـر الأقـزام يسـن حرابـه ويسـتعد للحـاق بــه لقتلــه.. وبالتــالي تعــريض أهــالي وأوطــان بنــي لحيــان وبنــي لخـم للمـوت والـدمار، وهـم فـي غنــى عـن حـرب ضــروس يخســرون فــي نهايتهــا مــواقعهم أمــام الأقــزام المسلحين بأحدث الأسلحة.

هكذا بدأت أفكارهم وأطروحاتهم تتغلغل في النفوس، فلعبوا لعبتهم، حاولوا القفز وتخطي الحدود.. وحين نجحوا، قاموا بلجم الأصوات، وتسخيرها لأهدافهم.. حينذاك حدث الشرخ، وحدث الضياع والتيه والتغرير.. كانت الحصيلة من غبار أفكارهم أن سقط الكثير في الخديعة، نقم الكثير، تبلد الكثير، وكأن الحياة قد حُلّت من مثل وقيم وأخلاق وأهداف ونتائج.

مع توقف مسيرة المجد، عانت أجيال هذه التجربة مرارة الفجيعة والخسارة.. تناحر شباب بني لخم وبني لحيان، انقسموا بين مؤيد للعملاق ومناهض له.. تشابكوا بالأيدي، تطور الصراع إلى قتال حقيقي بكافة أنواع الأسلحة، تواصل حتى سقط من الطرفين الكثير من القتلى والجرحى.. لكن الرؤوس الكبيرة أدركت ما فعلت حين سيطرت على العقول، وجعلت من الشباب فراشات تحوم حول نورهم، لتحترق في نيرانهم.. عند ذلك اتخذوا قرار إبعاد سرجون.. فاختارت الرؤوس أفضل خدم عندهم لتنفيذ الخطة.. ولأني كنت أنا عمران من خيرة الخدم ومن أفضل شباب حراس الرأس الكبير، فقد وقع عليّ الاختيار لأقود مجموعة النفي والإبعاد.. لهذا كنت من بين الذين خاضوا مرارة التجربة.

***

كنت على رأس مجموعة عددها خمسة عشر رجلاً، "أضاف عمران"، انضم إلينا في الساعات الأخيرة خمسة رجال آخرين، لكن معظمهم تفرقوا، واتخذ كل منهم له رأياً خاصاً بشأن العملاق رغم أن جامعة الحياة كانت تصهرهم في بوتقة واحدة.

منذ البداية حاولنا بشتى الطرق إقناع العملاق بالسفر إلى مكان بعيد، لم نفلح.. اتخذ قراراً لنفسه، وعزم على الرحيل وحيداً إلى والدته فردوس مهما كانت النتائج.

الرأس الكبير لم يترك العملاق يرحل ويواجه مصيره، أصر على مؤامرته وتنفيذ خطته..

في الليل وبينما كان العملاق نائماً انقض عليه مجموعة من الشباب وأمطروه بوابل من العصي والهراوات حتى فقد وعيه، وخلال ساعات قليلة قيدوه وأزجوه في طائرة أقلعت به إلى مصير مجهول.

تململ العملاق في الطائرة بعد إقلاعها بساعات، وعندما صحا من غيبوبته، اقتلع الأوتاد وقطع الحبال.. تمايلت الطائرة وهوت.. حاول ربانها قدر المكان إنقاذ الركاب، هبط هبوطاً اضطرارياً على سفح جبل شاهق.. ومع أن الركاب نجوا جميعاً، إلا أن الطائرة تحطمت، ولم تعد تصلح لشيء.

"حين كان العملاق ينوي السفر إلى بلاد المجد، راحلاً من بلاد الضياع.. أوقفه الكبار وتعرضوا له.. خسروه، وخسروا أنفسهم.. لم يساعدوه، ولم يتركوه يرحل في حال سبيله".. هذا ما قاله عمران أو حدث به نفسه.

تابع عمران حكايته:

أنا خُضت التجربة بنفسي، اقتنعت بخديعة الكبار، ورحت مع بقية الرجال على سفح جبل اللعنات نتخبط في دياجير عقولنا للوصول إلى القمة.. يتقدمنا سرجون واثقاً من خطواته، وبصوت منكسر يطلب من الرجال أن يهدؤوا حتى يجد الحل وطريق الصواب..

شعرتُ أننا ننسرب إلى القيعان، نضيع في متاهات الزمن.. بدأنا نضيع في الغابة وكأننا في صحراء رمالها متحركة.. منعدمة في اللاشيء، منقطعة.. قطعة مسروقة من الأرض، لا تغيب عنها الشمس، ولا تعرف العقبان لها نهاية.

شعرتُ أن دماءنا مهدورة.. لكن العملاق هو الذي علمنا الصبر.. علمنا كيف نحشد الحب في الصدور، لأنه يمد الحياة بالنبض.. أما الكراهية، فهي التي أبدعت الحروب، كما قال.

تمنيت أن يأتي خلفنا كل الغائبين الذين أحبوا مبادئهم، وأبدعوا للحياة خطوات متفائلة.. فملء عيني العاشق

عيوناً تريد أن تبصر، وتنطلق من عقال الخوف الذي نخشاه.. هذه العيون هي شبابه، أمانيه، صداقاته وأفكاره، انطلاقاته وطلقاته التي أبدعت معان جميلة للحياة دفعتنا للحاق به إلى قمة الجبل الشاهقة، كنا نلهث خلفه، نسير وكأننا سكارى، لا نرى غير ظلالنا..

بعد أيام قليلة أرهقنا التعب، بدأنا نعاني، نطرح أسئلة، تتقلص نظراتنا، نتهاوى، نندفع إلى الأزل، تدفعنا أشباح عارية ممتدة شبه خيوط بين الأشجار.. العملاق يتقدمنا، ونحن نندفع خلفه.. نُسقط كل شيء من حساباتنا، ونمتزج في عالم اللاوعي بلا يقظة.

****

القمة الأسطورة

مـن علـى سـفح جبـل المجـد بـدأنا نتهـاوى.. "أضـاف عمـران".. كانـت زرقـة السـماء تخـتلط بخضـرة الأشـجار، فترتسم في عيوننا نجوماً تتلألأ على شكل قوس قزح..

الهـدوء المخيـف يمـلأ جوانحنـا، لا نملـك إلا أن ننظـر إلـى القيعـان بصـمت، الكآبـة تتأبطنـا، والأفكـار تـأتي وتـروح كسـحابة صـيف لا تكـاد تظهـر حتـى تختفـي.. صـور باهتـة متعثرة بالاستفهام والتعجب..

تعثر أحدنا في أفكاره، فسقط قبل أن نصل.
شـاهدته مـن علـى القمـة التـي قاربنـا الوصـول إليهـا، يهـوي مثـل ريشـة فـي قلـب عاصـفة.. لـم يعـد لـه أثـر، أنـدثر، ولم تقم له قائمة.

فـي المعانـاة تكبـر الكلمـات، يصـبح للحـزن صـوت كأنـه خفـق الضـلوع، كأنـه لمعـان الـدموع، أو الوحـدة التـي تتجـاوز الألـم والقسـوة.. تحطمـت أحلامنـا، وانـدثرت فـي القيعـان ذرات أمانينـا.. لـم نعـد نملـك شـيئاً مـن مقومـات الحياة غير الأحاسيس.

جهـاز الإرسـال تعطـل وبقينـا مـع وحـدتنا نشـق الطريـق إلـى القمـة.. الضـباب بـدأ يبعثـر أغلفـة الصـحو، يغمرنـا فـي

شفافية رطبة، حتى لم يعد أحدنا يرى الآخر.. ومع ذلك كنا نندفع إلى الأعلى اندفاعاً.. كل شيء أمامنا كان ناعماً براقاً.. فجأة، ومن وسط الضباب، سمعنا صوتاً يقول: أهلاً بمن أوجدتهم أقدارهم على قمتنا..

الصوت أعاد إلى روحي الحياة..

انبثق من وسط الضباب شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، وجهه هالة قمر.. بش في وجوهنا وأضاف: أهلاً بكم في قلعتنا.. قلعة آرنون.. إننا منذ زمن لم نستقبل ضيوفاً.. لقد كنا في انتظار العملاق منذ زمن.. أنتم في ضيافتنا..

لم ينبس أحدنا ببنت شفة، إلا أن العملاق بادله نظرات ثاقبة، وكأنه يعرفه منذ زمن.. فتبعناه بخطى متثاقلة.. إلى قصر شاهق أوصلنا، ومن بابه الكبير أدخلنا، وفي إحدى غرفه الواسعة تناولنا الطعام، ثم قادنا آخرون إلى غرف نظيفة ومفروشة بأثاث وثير، وطلبوا منا الراحة، والنوم على أسرة لم نشهد جمالها من قبل.

حين صحوتُ من نومي، ولا أدري لأي فترة أمتد.. شاهدت أحدهم يقف على مقربة مني، وبصمتٍ أومأ لي أن أتبعه، وإلى غرفة كبيرة كأنها قاعة محاضرات أوصلني.

وجـــدت بقيـــة رفـــاقي جالســـين علـــى مقاعـــد وثيـــرة بانتظاري، وفي المقدمة جلس سرجون ينظر إليهم.

الصـمت كـان يخـيم علـى المكـان، اتخـذت مقعـداً معـداً لـي وجلسـت، عـلا صـوت فـي القاعـة يقـول: أهـلاً بضـيوفنا الأعـزاء.. أرجـوا أن تكونـوا قـد اسـترحتم فـي الأيـام الثلاثـة الماضية.

نظـرت إلـى رفيـق يجلـس علـى مقربـة منـي وتسـاءلت بعينـيّ.. أضـاف الصـوت: كنـا علـى موعـد مـع العمـلاق، لهـذا بعثنـا بمـن يسـتقبله، لكنـه تـأخر فـي صـعود الجبـل بعـض الوقـت، إلا أن وصـوله سـالماً إلـى هـذه القمـة، ووقفـتكم معـه خاصـة، بعـث السـرور فـي قلوبنـا، فـأنتم أقربـاء، ولا أظـن أن للبغضـاء مكانـاً فـي قلـب أي واحـد منكم..

انقطـع الصـوت كمـا انطلـق فجـأة، بعـد أن زرع فـي رؤوسـنا تسـاؤلات عديـدة، وحـين فُـتح البـاب، انـدفعت طاولـة عليهـا مـن المـأكولات مـا لـذ وطـاب ولـم نـره مـن قبل.

طلـب الشـاب منـا الجلـوس علـى المقاعـد المعـدة فـي غرفـة الطعـام.. كـان كـل مقعـد قـد خصـص لواحـد منـا كُتـب عليـه أسمه.. وبقي مقعد وحيد على طرف الطاولة بلا اسم..

ظهر أناس جدد قاموا على خدمتنا بصمت، ولم يجيبوا على أي استفسار، تقدم شاب بعمر من قابلناه في البداية.. حياناً وجلس على المقعد الفارغ..

وبينما كنا نأكل الطعام بدأ الشاب يتحدث: هذه القمة التي قادكم قدركم إليها هي قمة المجد والشباب.. إنها عنفوان متكامل، متجدد.. فمن يقيم عليها سيبقى إلى الأبد شاباً تخلده الأجيال على مر الزمن.

حاولت أن أقاطعه.. لكنه أشار عليّ بعدم الاستفسار في هذا الوقت، أضاف: سأجيب على أسئلتكم فيما بعد، بعد أن أعرفكم على من ستعيشون عندهم..

إننا هنا أسرة واحدة.. جمعنا القدر عبر انطلاقات عالمية.. غيّر بعضنا مجرى التاريخ، والبعض الآخر في طريق المقاومة لتغييره.. نحن هنا كُثر، ستعرفوننا جميعاً، وإذ أدعوكم للبقاء معنا.. أحذركم من سقطات الزمن.. فمن يصعد إلى القمة، لا يحق له النزول.. نزوله عن القمة يعني انسحاقه واندثاره.

أنا مثلاً أقيم هنا منذ مئات الأعوام.. وأمي كذلك، وهي شابة لم تتجاوز الثلاثين من عمرها.. العمر هنا لا يحسب بالأعوام.. إنما بما ينجزه المرء من أعمال تُسجل له في التاريخ وعلى مر العصور.. العمر يُحتسب باللحظات السعيدة التي عاشها المرء وأسعد بها غيره.

هذه الأسرة الخالدة التي ينضم إليها كل عدة أعوام أناس جدد، يحاولون إثبات وجودهم في العالم الإنساني لتثبيت قيمهم، وغرس مبادئهم عبر أجيال طويلة.. هي أسرة عريقة قوامها رجال شرفاء ونساء شريفات.. آمنوا بمبادئهم، وثاروا على ظلم أحاق بهم وبشعوبهم.. فضحّوا بأرواحهم من أجل حياة وراحة أمتهم.

إنهم هنا يعيشون معي في القمة السامقة إلى الأبد.

قاطع حديث الشاب أحد المشرفين على الطعام وتقدم نحونا.. عجوز قدّرتُ أنه تجاوز الثمانين من عمره.. حملقتُ في وجهه وتساءلت في قرار نفسي عن اللغز الذي أوقعنا فيه هذا الشاب ذو المئات من الأعوام كما قال، فأردف: وها أنتم ترون بأعينكم هذا العجوز.. لقد مر بتجربة، سأتركه يقصها على أسماعكم ويتحدث إليكم:

بدأ العجوز يتكلم، بينما انسحب الشاب إلى الباب الذي دخل منه وأغلقه خلفه.. قال: وصلت إلى القمة بما قدمته للإنسانية من اختراعات.. كنت قد جاوزت الخمسين من عمري.. وعندما وصلت هنا عاد الشباب إلى قلبي، وانغرست باقات الزهر في رياحين عمري، فعدت مثل هذا الشاب الذي كان يتحدث إليكم.. إنه الناطق باسم رئيس هذا القصر.. وحين قص عليّ قصته التي

سمعتموها من لسانه، لم أصدقه في البداية.. كان ذلك قبل حوالي مائتي أو ثلاثمائة عام..

بقلب الشباب أحببت فتاة التقيتُ بها هنا، اتفقت معها على الهروب من هذا القصر الذي بات كسجن لنا، ولا نستطيع الخروج منه.. كانت متحمسة للهروب أيضاً.. في رحلة الهروب رافقنا ثلاثة شبان أيضاً.. ما أن وصلنا الوادي الذي يفصل القلعة عن سلسلة الجبال المحاذية للقمة، حتى بدأ شعر الشيب الأبيض يظهر فجأة في رأسي.. نظرت إلى رفاق الهروب، لم أعرفهم في البداية.. بدوا وكأن عمر الواحد منهم تجاوز المائة عام.. فجأة بدأ العجز يدب في أوصالنا، أما رفيقتي فبدت كعجوز شمطاء تزيد عن الثمانين.. لم تستطع الاستمرار في السير، ففارقت الحياة بعد عدة ساعات.. وبقيت أحث الخطى مع الهاربين.. مات أحدهم قبل أن نصل أول حقل.. وعند النهر تركت الثاني وهو على فراش الموت.. صمدتُ أنا والثالث حتى شارفنا على ظلال قرية.. شعرت بتعب في قدميّ، ولم أستطع مواصلة السير.. وفجأة وقع صاحبي على الأرض وقال: إذا أردت النجاة فعد إلى القمة.. إن من يعش عليها لا يستطيع الحياة بين القيعان.. نزوله منها يعني اندثاره.. كان أعرف مني وأعلم بأمور القمة.. فقررت العودة.. في القمة روعه لا يمكن لأحد أن يستمتع بلذتها وهو

يعيش في القيعان.. فكرت بكل شيء، وعدت أتسلق الجبل قبل أن أندثر.. وجدت مقعدي في هذا القصر على حاله، لكنه تراجع إلى الوراء عشرات السنين.. لم أستطع دفعة إلى الأمام بعد أن حدث ما حدث.. ومنذ حوالي مائة عام أو أكثر، وأنا على هذا الحال كما ترون.. وكلما سألت الشاب عن عودة شبابي إلى سابق عهده، امتقع لونه ونظر إلي وجهي نظرة رثاء وقال: لم يحن الوقت بعد.. يجب أن تكفر عن خطاياك أولاً.

إنني أستحق هذا المصير.. فقد خنت المجد، وأحببت أن أهوي إلى القيعان.. إننا هنا في القمة نفقد عداد الزمن، ولا يهمنا ذلك طالما ونحن نعيش في سبيل هدف يقربنا من السماء.

إنني يا أصدقائي، وبعد هذه التجربة، أحذركم من مغبة السقوط أو النزول عن القمة.. فقد أوجدكم قدركم على قمة المجد، فلا ترحلوا إلى آبار الفناء.

صمت العجوز وفي وجهه مسحة من الألم، وعلى شفتيه ابتسامة رضا عما هو فيه، وكأنه يتوقع الشروق والأمل في اللحظة القادمة.

***

لم نأكل بقية الطعام.. كنا مشدودين إلى هذه الأسطورة الغريبة.. كانت الفكرة العمياء تقدح في شهاب عقولنا المظلمة، اعتقدنا في قرار أنفسنا أن هذه الأسطورة ما هي إلا هراء لا يدخل العقل، ولا يقترب من المنطق بشيء.

في اليوم التالي قيل لنا بأننا أحرار في تصرفاتنا على هذه القمة، بعد أن حذرنا الشاب من النزول أيضاً، فبقيت مع الرفاق، اتفقنا على ما جئنا من أجله، تواارينا واندفعنا إلى مكان تحطم الطائرة.

عند المساء عدنا، كان أحد الرفاق يحمل جهاز إرسال صغير خبأه بين ثيابه.. وبواسطة هذا الجهاز اتصلنا مع الرؤوس الكبيرة التي دفعتنا إلى هذا المصير المظلم، ومن موقع هبوط الطائرة استطعنا تحديد موقعنا، فطلبوا منا البقاء بانتظار تعليمات جديدة..

في قرارة نفسي كنت أتساءل: "هل يمكن أن ينهزم حب الأرض تحت مطارق المتناقضات المعاشية في هذا العالم؟!.. وهل ينسى عاشق الأرض في هذا الخضم الأسطوري الذي نعيشه فيفكر في نفسه، لينجو من قبضة الريح؟!.. هل ينسى والدته، بعد أن فقد أرضه ودفن حبيبته؟".

إننا أغبياء.. حدثت نفسي، كانت القضية الأساسية هي قضية الإنسانية الشاملة، حيث تجمع انفعالات الثائر وتصهرها في حسه، فيسكبها حروفاً وعبارات ورسوماً ورصاصاً.. لكن القضايا الذاتية التي تنغل في جوانح القوى المعادية للثائر، هي التي تحدث الشروخ في داخله.. هي التي تكبح الخيول الراكضة في صدره وذهنه، تقزمها وترمي بها إلى قيعان الصمت.

الثائر عاشق هدف.. الأحزان تكبر وتذوب.. الأماني تتفسخ وتتجسد، والشعور يصبح حياة مع أبناء المجد حيث يكبر حسهم في العالم، تتبلور رؤيتهم، تنضج تأملاتهم في معايشة الإنسانية والذود عنها.. إن إبداعهم يرتفع ويستقطب كل القوى الثائرة.. يلتقون في أمجادهم، وفي قممهم الرانية إلى العلياء، الشامخة إلى السماء.

إنهم يضحون في سبيل أهدافهم.. وتلك هي علامة النجاح الفارقة في جهد هذا العملاق وعطائه لأمه وعشقه لأرضه.

أما نحن المهزومين فما زلنا نتآمر.. نقبع في حجراتنا الفارغة، نخاف حتى من الهواء النقي، وننتظر التعليمات من خلف الأقبية من أسيادنا المحاصرين تحت أغطية الزمن البالية.

****

خديعة

هذه الغلالة السوداء التي برقعنا بها أنفسنا، "أضاف عمران"، هي التي حولت نهارنا الساطع إلى غسق ليل، واعتقدنا أن ليس هناك ضوء في نهاية النفق.

أجسادنا هي الوحيدة التي عاشت على القمة.. أما نفوسنا فكانت محطمة.. ونظراتنا، تلك التي لم ترنو يوماً إلى العلياء، فلم تحلم بالقمة، ولم تعشها أبداً.. "هكذا تعلمتُ من أسرار القمة".

إن الرؤوس التي سخرنا أنفسنا لخدمتها، هي التي أوصدت الأبواب وبنت الجدران حول عقولنا.. كانوا هم المفكرون، وكنا أداة الجريمة.. كانوا يخططون كالسادة، وكنا ننفذ كالعبيد.. كانوا يتشدقون بكلماتهم المهترئة، وكنا نصفق لهم.. كانوا هم الأسياد، وكنا نحن العبيد..

نسينا أنهم يصفقون لنا كمن يدعو نادل مقهى..

قال لنا الشاب ذات يوم ونحن نحملق مشدوهين بأسطورتهم: إن في أعقابكم ريحاً خبيثة، فلا تنفثوها في وجوه عشاق الأرض على القمم الطاهرة.

كلماته كانت تثير فينا السخرية، لكننا لم نجرؤ يوماً على التحدث بصوت مرتفع.. كنا نشعر أن أهل القلعة قد

عقدوا اتفاقاً مع سرجون، لهذا بدأت الشكوك تملأ نفوسنا، حتى اعتقدنا أن في حجرة كل شخص منا آذان وأعين تتجسس علينا.

***

حلقت طائرة في سماء القمة بعد طول انتظار، أسرعنا بالاتصال معها بواسطة جهاز الإرسال.. على بقعة صغيرة من القمة، أسقطت الطائرة عدة صناديق ورسالة جاء فيها: "إن مهمتكم اليوم قتل أفكار العملاق في داخله، عليكم أن تجعلوه ينسى ماضيه، وتدفنوا أفكاره حتى ينسى أرضه ويهجر والدته.

لقد استطعنا إبعاده عن مقر عشقه، لكننا نعلم أن حبه لكوكب الهوا باق كبقاء الأرض.. لذا لا نريد قتل جسده، نريد قتل روحه وأفكاره.. نريد التعتيم على حياته حتى يهترئ، ينفي نفسه بنفسه.. مهمتكم ليست صعبة، طالما والصناديق محشوة بالكتب التي تغير أفكاره القديمة وتغرس في نفسه أفكاراً جديدة من نوع حب المال، والطاعة للسيد.

إننا اليوم نختبر قدراتكم.. فلا تعودوا إلا وقد غدا هذا العاشق إنساناً خاملاً في أفكاره، مهزوزاً في قوته، جديداً ومتفانياً في خدمتنا".

وحتى تكتمل الخديعة.. أقنعنا شباب القمة أننا عثرنا على كنز من الأفكار القيمة في بطون الصناديق.. فسارعوا إلى نقلها ووضعها في ركن خاص من القصر في القلعة.

من تلك الصناديق بدأت مهمتنا لنجعل من سرجون إنساناً جباناً، خائناً لمبادئه وأهدافه، ولنجعل من العملاق قزماً.

في البداية بدأ يقرأ كتب الأسياد بنهم لا مثيل له، لكن الأيام خذلتنا حين شاهدناه يمل من الكتب، يقلب بعض الصفحات فقط، ثم يرمي الكتاب جانباً ويسرح بنظراته من النافذة الزجاجية عبر سلسلة القمم المتراصة.

شاهدته يوماً يسرح ويفكر، يقلب أحلامه عبر أفكاره، وفي الليل يشرد بجسده كما يشرد بذاكرته.. كنا نراه كنور مشع يسرح في الغابة الخضراء مع أشباح الليل..
تصرفاته أثارت في نفوسنا الشكوك.. شككنا في قدراتنا، في أنفسنا، وفي بعضنا البعض.

ذات يوم آخر، شاهدته يضيق من نفسه.. يصغر، يتقلص.. فاعتقدت أن بوادر النصر باتت قريبة عندما عاد للقراءة بنهم من جديد.. ما أن ينتهي من كتاب حتى يبدأ بتصفح الآخر.. شعرت في قرارة نفسي، أنه بدأ يهدم نفسه بنفسه.. شاهدته يضيق بسماع سيمفونية

بيتهوفن التاسعة، وتهفو نفسه لسماع أغنية باردة تثير الضيق في النفس والاشمئزاز.. تترك مرة سماع موشحات فيروز، وأعلن أن حفيف الأشجار يسبب ضيقاً في التنفس.. وفي اللحظة التي جلسنا فيها نرقب العملاق ونتوقع توبته وعودته إلى الأسياد.. شاهدناه يخلو لنفسه، يصمت، يتعذب، ويتدفق حباً..

من بين لمعان البرق وقصف الرعود، سطع خيال امرأة على جدار غرفته، ومن خلال النافذة الزجاجية، شاهدناه يتحدث معها.. رجف واعتدل في جلسته، ومن خلال صمته المعبر عما يجيش في صدره، سمعنا كل شيء.. كان صوتها الملائكي يصدح: أين أنت يا وحيدي؟

نظر إليها ونقاط من الدمع تملأ عينيه لتطفئ لهيبها وأجاب "ألعق جروحي في القمة التي بدأت تقلص المهزوزين".

والدته فردوس كانت تتجسد في تفكيره وعقله، تنير السراديب المعتمة التي أظلمت في قبور أحلامه.. قالت:

- هل انتهيت ؟!
- إنني أنتظر حضور المتفرجين، القمة شامخة والوصول إليها صعب.
- لا بأس، سأسبقك إليها.. سأسبقك إلى الحضور..
- سآتيك يمّه.. فلحظة الانطلاق قريبة.

يصمت لحظة ثم يتغنى بموال حزين:

قاسي الزمن قاسي.
قاسي يا زمن والعذاب مالوش نهاية.
في القسطل جرحوك يمه ..
في دير ياسين ذبحوا الأطفال ..
في اللد، في يافا، في الخليل ..
في بيت لحم صلبوك يمه ..
وكان الدهر للعذاب ناسي ..

يعلو صوت الناي ويتواصل الحداء، ثم ينقطع حين تنتصب الأم فجأة في عيني العاشق شامخة إلى العلاء.. يقول

- مين؟! أنتِ يمّه !
- نعم يا ثائري.. ألا زلت تذكرني!
- وهل نسيتك حتى أتذكرك يمه! نحن أهل الأرض.. وأبناء الأرض أوفياء كما تعلمين، لا ينسى بعضهم البعض.. فكيف أنساك يمه!
- كيف حالك ؟
- كما ترين.. أنتفض، أنثر عن جبهتي غبار الخيام.. من حبالها أشد العزم على عاتقي، بأعمدتها أحارب على كل الجبهات حتى أصل قدميك..
- أهذا واقعك أم أحلامك!

- هذا واقعي يمه، أنت تعرفينه جيداً، أما أحلامي، فهي عندك كعهدك بوالدي، نحرث، نزرع، ندرس، نذري ونطحن.. نلم التفاح الحزين، نجمع البرتقال الباكي، نحلب الأغنام ونغني.. تماماً كما تذكرين.. الأرض حياتنا حتى لو قست علينا..
- تبدو يا وحيدي اليوم أفضل حالاً من قبل.
- لن أكون أفضل إلا عندما أفوز بقبلاتك الحقيقية، وأعود إلى كوكب الهوا.

تصمت الأم لحظة ثم تقول في وداعة حزينة:

- أراك شامخاً كقمتك يا وحيدي.. فإلى متى سأنتظرك؟! لقد طالت غيبتك، سفرك دام أعواماً طويلة.

يسرح عبر أحلامه.. يسألها: كيف القدس يمه؟!

- ينقصها الكثير.. ينقصها أن تكون فيها معي.. لماذا لا تعود وتصلي في المسجد الأقصى!، تحمل المسحاة وتعيش على أرضك؟
- كأنك تتجاهلين يمه؟، الأشواك أدمت قدميّ.. في طريقي إليك أعداء كثر، كلما خلعت شوكة، غرسوا قنبلة..
- أنت تتغير، كأن لك ألوان قوس قزح وتعيش فصلاً خريفياً..

- لا بد أن أتغير، لكن لن يكون ذلك في التزامي معك.
- أي التزام هذا الذي تتحدث عنه؟
- الصدق يا أمي.. فكما أنا ملتزم معك حباً وكلمة ووفاء وتمدداً في صدري، فأنا ملتزم مع مسؤوليات أخرى تدخل فيها ماديات الحياة، مطالب الطموح، ضرورة التفوق، ومعاني التجديد..
- إنك تمل بسرعة من الطريق الذي عبدته لنفسك لتصلني، فتغيّره بحجة التجديد..
- العاطفة الصادقة تتجدد في التعامل، في ابتكار زمن جديد لك كل يوم.. ليس معنى ذلك أن أسمعك كل يوم وتسمعينني، لكن أن أحسك كل لحظة، حتى تصل هذه اللحظة إلى إحساسك فترضين بها.
- لكني أسيرة الشوق لك، نسيت أني في سجن عميق مظلم، أريدك في سمعي، على صدري، وفي عيني دائماً.
- هذه أنوثة محدودة، تتحرك فيها الماديات إلى درجة مجحفة من الامتلاك.
- هل تريديني أن أرضى بهروبك؟
- ليس هذا هو الهروب ما دمت صادقاً معك، لكنها مشيئة القدر التي حركت العواصف، وحطمت سفن العودة.
- وغيابك ماذا أسميه؟!

- ليس ضرورياً أن تحددي له اسماً، اجعليه هو الحس في وجدانك، وانتظري قوافل العودة.
- حسي لا يجرؤ على ابعادك، أنت فيه صوته، أنت له الحياة، أنت عماره ويقظته..
- أكاد أتصدع.. هل ترغبين أن يتشقق صدري؟!
- وهل صدرك ملتئم بلا شقوق؟!
- أنت تعرفين يمه، حتى الامتلاك يولد الشقوق، فكيف والبعد قائم؟!
- إذن تعال وأنا من يضمد لك الجروح.
- إنها طبيعتك يا أمي، الدعاء، والدعوة للعودة، أنا قادم، لكن انتظري حتى أستطيع النجاة من هذا الحصار المفروض على زمني.. إنني أحاول الهروب منه لأحدّ من قسوته، ومن جنونه.. أما قدومي إليك فلا بد منه، إنه واقع، والواقع حق لا يتغير.

****

رحيل

عرفت فيما بعد أن العملاق كان يطالع كتبنا ليعرف أفكارنا، كيفية تفكيرنا، ويواجهنا بما في أنفسنا، كلمة بكلمة، وطعنة بطعنة.. بنفس المدية يُقتل القاتل.. "تابع عمران"، العملاق كان أعلم منا بهذه الأمور.. في لحظة ضعفنا بدأ الانشقاق يدب بين صفوفنا.. اختلق كل منا له رأياً وتبناه، لم يتفق اثنان على رأي واحد، وبتنا على شفير هاوية.

في ليلة مظلمة أقسم "أبو نكد" أن يقتل العملاق ليرتاح منه، مخالفاً بذلك أوامر قادته وسلطتهم.. تبرأ البعض من هذا الموقف، وانسحب البعض يفكرون في خلوتهم المظلمة عما سيقولوه لأسيادهم عن فشلهم الذريع في تغيير أفكار ومبادئ العاشق المتيم.

في اليوم التالي فوجئنا بوجود خمسة أشخاص غرباء بيننا، قالوا إنهم قادمون من عند الأسياد، وإن الرياح هي التي نقلتهم إلى هذا المكان.. عندما أدخلهم رجال القمة إلى المصح العقلي وجدوا أن جماجمهم لا تحتوي على أدمغة، وفي اليوم الذي يليه افتقدنا آثارهم كلية.. لقد عادوا فجأة كما أتوا، يرافقهم خمسة من رفاقنا البائسين.. سادنا شعور حزين، وخيم على جو القلعة ضباب كالح

اللـون يعلـن عـن سـحق وانـدثار الهـاربين مـن قمـة المجـد السامقة.

عنـد المسـاء شـعرت بـأن هنـاك مـا يـدفعني إلـى قمـة مقابلـة كانـت تتـراءى لـي عـن بعـد.. كنـت أقفـز وأشـعر أن لـي أجنحـة حتـى وجـدت نفسـي فـي قصـر عظـيم.. فجـأة وجـدت نفسـي استسـلم لنـوم عميـق وأصـوات أسـطورية فيمـا يشبه الحلم.

أصـوات غريبـة كـان تـأتيني فـي المنـام، سـطع نـور غمرنـي ولـم أعـد أسـمع غيـر كلماتـه: "أنـا لا أسـتطع أن أتخيـل دمـوع أم فقـدت وليـدها فـي دولتـي المطعونـة الصـامدة، تبكـي طفلهـا الـذي حصـدته قنابـل طـائرات الأقـزام.. لـم يعـد فـي اسـتطاعة الإنسـان أن يحتمـل فجـور القـوة.. الـدول القويـة فـي العـالم تتفـرج الآن علـى كـل مـا تفعلـه طـائرات العـدوان وهـي تقصـف المـدنيين متذرعـة بضـرب قـلاع العاشـقين.. الثـوار أقويـاء فـي صـمودهم، فـي تضـحياتهم، وفـي عشـقهم لأرضـهم.. فلمـاذا الوقـوف فـي وجـوههم؟! لمـاذا تسـاعد الأعـداء بـالوقوف فـي طـريقهم؟.. إنهـم أبطـال، وتـاريخ شـعبهم حافـل بآيـات التقـديس والبطولـة.. كـانوا أسـياد العـالم، وعشـاق الثـورة علـى أرض بنـي لحيـان وبنـي لخـم ضـيوف.. فلمـاذا تقـف عابسـاً فـي وجـوههم؟.. لقـد تـألم المقـاتلون مـن تصـرفاتك وتصـرفات رفاقـك، حتـى أصـبح الألـم فـيهم قنابـل ورصـاص.. أمـا

علمتم أن كل محاولات السلام والصلح تذهب هباء مبعثرة ملطخة بالدم فوق خيام الصامدين، وفوق أنقاض الذين أغارت عليهم طائرات الأقزام، والدول الكبرى تتفرج، وتمد العدو بالسلاح.. لتعلم أن الأقزام مهما كانت قوتهم، لن يستطيعوا وقف زحف هذا الشعب طالما وكوكبه مفقود.. لقد اختار العملاق طريقة، وصل قمته.. وها أنت ترى زملاءك بدأوا بالتراجع والاندثار، وذلك فقط لأنهم لم يتعودوا الصمود، إنهم يفخرون بأسيادهم المهزوزين.. إن طريقك صعب.. ونحن هنا من أعالي القمم نخاطبك ونقول: إننا لا نحب لك ولرفاقك الموت.. أنتم الآن على قمة المجد، ونحن حزينون لفقدكم واحداً بعد الآخر، كحزن الأم التي حصدت قنابل طائرات العدوان وليدها.. الحزن ملامح وجوه، فإذا انتقل من الوجوه إلى الصدور، تحول إلى رفض وإلى مقاومة، وإلى حرب لا تنتهي.. وإذا كان الأعداء قد صلبوا المسيح.. أليس في استطاعتهم أن يصلبوا السلام بعد أن صلبوا رواد السلام.. أليس في استطاعتهم أن يصلبوا العدالة بعد أن صلبوا الأطفال؟!.. إن أصحاب الحقوق الشرعية لن يتوقفوا عن مسيرتهم حتى تعاد لهم حقوقهم كاملة وغير منقوصة..

هذه الحقيقة، ولا بد أن يفهمها العالم إذا أراد أن يسود السلام.. وبدونها سيلاقي العدو المغتصب الكثير من المتاعب والويلات والكفاح ضده"..

صحوت من نومي وأنا أصرخ: "كلا، أنا لم أسقط في العدم وفي النسيان، إنني أحاول أن أقاوم الضمور وأتجدد.. إنني أعطي وأقاوم.. لن أقف في وجه الثوار عشاق الأرض أبداً".

في نومي رأيت أناساً خالدين، يتشكلون بأشكال مختلفة وينطقون بلغة الضاد.. يحاولون غرس الثقة في نفسي، والعودة بي إلى الطريق القويم قبل أن أندثر.. وحين صحوت لم أشاهد أحداً..

ركضت بأقصى سرعة خارج القصر، ومنه إلى القمة التي تركت فيها الرفاق.. هناك شعرت بالانكماش، وانزويت أستعيد عالم الأحلام الذي ما زال يحفر ذاكرتي..

في أعماقي وقفت أتحدى قرارات الرؤوس المدعية بالتفكير.. بدأت أعاني آثار الآم نفسية حادة.. فترة صمت قصيرة مرت.. كان سرجون خلالها يتجاهل وجودنا، ويقرأ في كتاب "صراع الأخوة وحتمية التاريخ"، وإذا بالشاب الذي لم نقابله منذ فترة طويلة يدخل من غير

استئذان ويقول لسرجون، إن زعيم القمة ينتظره غداً مساء..

صباح اليوم التالي وعلى حين غرة هجم أحد المتآمرين على سرجون فجأة.. وبدأ معه صراع رهيب.. كان أبو نكد قد أعد قوته وسن حرابه، المعركة كانت حامية الوطيس، ولم نتخذ قراراً لمساعدة أحد.. اعتقدنا أن أبا نكد لا بد قاهر العملاق وقاتله.. وقفنا مذهولين نرقب النتائج، ونعد العدة في قرارة أنفسنا باتهامه وحده في عملية القتل.. المتخاصمان خارا من التعب، وأخذ كل منهما يمسح دماءه بثيابه ويلعقها، ونحن نتفرج، وكأن المسرحية لا تخصنا، ولا تمت إلينا بصلة من قريب أو بعيد.

في نهاية العراك، وقف العملاق حزيناً غاضباً وقال: أعرف أنني وحيد في عالمكم، وحيد بينكم، وكثيراً ما اعتقدت أن الخير في نفوسكم سينتصر على الشر، لكنكم خيبتم آمالي.. إنني لم اختر هذه المعركة، لكن أنتم من دبرتموها في الظلام للقضاء على أهدافي.. لذا سأرحل إلى القمة المقابلة حيث شيدت فيها برجاً، ومن هناك سأنطلق إلى أمي أحررها من الأسر، وأحرر نفسي من قيودكم..

قال سرجون ذلك وغادر المكان حاملاً سلاحه الذي لم يستعمله في المعركة ضد من أراد قتله.. كان يعتقد أن

أبا نكد حاول وقفه عن المسيرة "ليس إلا"، ولم يعتقد أنه حاول قتله.. لذلك ترك باب الأمل مفتوحاً للالتقاء به ثانية.. وما أن غادر المكان حتى حمل أبو نكد سلاحه وغادرنا هو الآخر متجهاً إلى القيعان، لحقه بعض الرفاق، اهتزت الأشجار فرحة، وهمست الرياح "إنهم يسعون لحتفهم في بقايا الحفر العفنة المتآكلة".

لم يبق غيري مع أربعة من الرفاق، ومع ذلك لم أتوقف عن مجاراة الأسياد.. كنت أحاول أن أغير مجرى التاريخ لأرى ماذا سيحدث للعملاق.. لهذا قررت الرحيل إلى القمة الثانية من القلعة، حيث القصر الذي أوقد في عالمي شعلة الصحو والتمرد.. حملتُ مع رفيقيّ الكتب، وبدأنا نخادع العملاق من جديد.. نتملقه، ونعيده إلى القراءة من جديد.

ذات مساء ثار علينا أحد الرفاق واعترف للعملاق بالمؤامرة التي تحاك ضده، فنظر العملاق الينا وقال: إن الدم العربي دم نقي.. والدم النقي لن يتخلى عن أصله أبداً.. فإن نسي نفسه ساعة، فإنه لن ينساها يوماً.. وإن خُدع يوماً فإنه لن ينخدع دهراً.. وهذا أملي بالرفاق الباقين، إنني بحاجة لمؤازرتهم.. واثق من وقوفهم جانبي بعد الذي حصل..

كنت أهضم كلماته بنهم وشغف لا مثيل لهما، لكني لم أشأ أن أظهر له ذلك، ولم أشأ أن أعترف لرفاقي بأني أميل للعملاق لأنه يمثل الحقيقة والواقع.. وآثرت الركض خلف العواصف، وفي كياني تشقق.

****

صراع

المعرفة بدأت تهفو إلى داخلي كالهواء الذي أتنفسه، وبدلاً من أن نغير أفكار العملاق، بدأنا نحن نتغير..

كنت أرقبه فلا أرى فيه إلا إنسان صامت، يُعبّر في صمته عن حقيقته.. وفي الليل أراه وهجاً يتلألأ بين الأشجار.. يهمس ويتبادل الابتسامات مع أشباح الليل الذين يحرسون القلعة.

انطلاقاته من القمة كانت مجهولة، في لياليه كان ينطلق لمقابلة والدته، مخترقاً حواجز سجنها الكبير المشيد بين البيارات الحزينة على التراب المقدس في كوكب الهوا.. يحرث الأرض بسلاحه، يقاوم الأقزام، يعود وابتسامات الرضى على شفتيه، مؤكداً أنه لن يتوقف حتى يستطيع أن يقابل أمه في وضح النهار.. يفك قيدها ويجلس معها أمام عيون العالم أجمع، ويعوض عن الزمن المفقود بإعادة بناء الدولة المحتلة بعد تحريرها.

تلك كانت أحلامه وآماله..

أما نحن فقد بدأنا بلعبة جديدة.. بدأنا بالاتصال مع الأقزام، لنقيم جسراً للصلح بينهم وبين العمالقة.. طرحنا فكرة اللقاء كبادرة لحسن النوايا.. وفي أعماق رؤوسنا

كنا نفكر أن مثل هذا اللقاء سينهي الأزمة بالواقع المفروض الذي لا يستطع العملاق تغييره..

لكن كالب رفض الفكرة، أصر على مطاردة العملاق وأتباعه، وأقسم أنه لن يفك قيد فردوس حتى تموت في سجنها أو يأتيه سرجون راكعاً مستسلماً..

ما أن عرف سرجون بخطتنا حتى نظر إلى البعيد، وكأنه يرقب كوكب الهوا بمنظار عسكري، وقال: لماذا تحاولون الاتصال بمن اغتصب تل الهوا في كوكبي، ذلك العدو الذي قتل حبيبتي وسجن أمي!؟، ألا تعرفون أن جراحي التأمت، وذراعي طالت رؤوس الأقزام وشل قدرتهم، فاعترفوا بوجودي رغماً عنهم، وإن لم يصرحوا بألسنتهم.. إنهم اليوم يعترفون بقدرات العمالقة.. ولم يبق أمامهم غير تبني الواقعية والاعتراف بحقوق العمالقة في وجودهم القومي المستقل؟!

لم نجد جواباً لتساؤلات العملاق، وآثرنا الصمت والانسحاب.. لكن أشجار الغابة اهتزت طرباً، وبعثت الورود برياحين عطرة معلنة عن بعث الآمال العريضة في نفوس العمالقة.. وشاركتها الطيور بأنواعها مغردة، منادية بتعزيز قدرتهم القتالية والمحافظة على ثورتهم.

في اليوم التالي عاد العملاق من الغابة وابتسامة عريضة تملأ وجهه، ولم ينطق بحرف واحد.

كنت أرغب في التحدث معه لأعبر له عن فرحتي بشحن طاقاته الهائلة، وأخبره عن المجموعة المحيطة به.. لكني وجدت نفسي أنطق بلغة أخرى غير لغتي الأصلية.. كانت المعلومات التي في بطون الكتب قادرة قدرة السيف، وكان لها فعلها، حتى استطاعت في بعض الأوقات أن تحوز على إعجابه، فاختل توازنه، وتقاعس لدقائق عن الفكرة التي نوى تنفيذها.

يحاول أن يقرر، لكنه يعجز، يعاني، يتألم، يمر بمرحلة إجهاض جديدة.. انفرجت شفتاه وقال: أفضل حياة الجحيم في كوكب الهوا على الجنة في غيره..

تثائب وتمطى.. شعرت أنه بدأ يعاني من جديد، كمن يمتطي الرياح والغمام للوصول إلى هدفه.

يحاول أن يتخذ قراراً، يتألم.. أدار وجهه نحو نور خفيف شاحب، انفرجت شفتاه ثانية ولم نسمع صوتاً.. كان يتحدث مع نفسه: لقد انطلق الثائر من بين قضبان زنزانة.. انطلقت الثورة من حياة الضياع والمنفى بعد أن حطمت القيود.. هذه الثورة وُجدت لا لتقتل العدو، وإنما لتقضي على مبادئه وأفكاره اللعينة.. لقد أصبح القتل في رأي العدو المغتصب عمل مباح.. وبذا حكم على نفسه

بـالموت.. اختـار العـدو أن يقتـل نفسـه بنفسـه ليكفـر عـن جرائمـه التـي اقترفهـا فـي حـق الشـعب صـاحب الحـق.. لكـن لـيس مـن حقـه أن يسـتعمل هـذا القـوة البشـعة، فـي قتـل ذوات الآخرين.

أغلـق العمـلاق فمـه، وغـاب عـن وعيـه، إلا أن الكلمـات الكبيـرة بقيـت عالقـة.. وبـدأ مـن جديـد يتقلـب، يتـألم فـي غيبوبته..

كنـا نرقبـه وهـو يحـاول الصـمود، ووقـف حالـة الهـذيان التـي يمـر بهـا.. صـمته كصـمت البحـر والقمـم الشـامخة.. ومـع ذلـك كـان يعبـر بوضـوح عمـا فـي داخلـه مـن خـلال هذيانه..

ارتسـم شـبح علـى الجـدار وهمـس فـي أذن العمـلاق: إن القـذائف التـي تتبادلهـا مـع العـدو، لهـا نفـس قيمـة المفاوضـات التـي سـتجريها يومـاً مـا.. فـلا يمكـن أن تحـارب ولا يمكن أن تجري حواراً مع أشباح..

اختفـى الظـل ثـم عـاد خيـالاً بصـورة أخـرى: إن التسـوية النهائيـة التـي يمكـن أن تقـوم، يمكـن أن تـتم علـى أسـاس مشـروع التقسـيم الـذي وافقـت عليـه الأمـم المتحـدة فـي زمـن مـا، وهـي طريقـة أخـرى للموافقـة علـى وجـود دولتـين فـي كوكب الهوا واحدة للأقزام وأخرى للعمالقة.

جاء ثالث يتخبط ويتابع: لقد أصبح الشعب الثائر واقعياً أكثر، لأنه أصبح أقوى.. لقد تخلصنا من عُقد الرفض التي كانت تلازمنا.. إننا نرفض سياسة كل شيء أو لا شيء.

انقلب العملاق في نومه فارتسمت صورة أوضح: إن الرجل الثوري الحقيقي لا يمكن أن يكون شخصاً يعيش في الأحلام، لكنه رجل يحلل بصورة واقعية.. وقد اتضح لنا أننا سنخسر الجولة بكل تأكيد إذا ما انفصلنا عن حلفائنا الطبيعيين، الذين قرروا العمل على تحقيق حل وسط يقوم على أساس وجود العدو..

لم تتوقف الصور.. المعاناة على أشدها، الألم يجتاز مرحلة صعبة في كيان العملاق، يتألم في غيبوبته.. يتقلب وكأن أشواكاً حديدية تغرس في جسده.. كان أطفال الحجارة يتقدون في ناظريه وهم يقذفون بحجارة نحو الأعداء بغضب كأنها حجارة من سجيل.. همس في قرارة نفسه: لا أدري كيف استطاع الرجال المتشددون أن يحولوا العشاق إلى شعب يعيش في الخيام لأكثر من خمسين عاماً.

الصور تتلاحق كشريط سينمائي في رأس العملاق.. بدت الصورة أوضح وصوت يهمس في أعماقه "إن إقامة دولة صغيرة.. لن تكون إلا مرحلة على الطريق المؤدي سواء في عشرة أعوام أو مائة، إلى إقامة دولة

موحدة وديمقراطية.. فوجود دولة كائنة ما كانت مساحتها، وجواز سفر وعلم وخصائص من السيادة الوطنية، تمنح العمالقة إمكانيات أكثر".

اختلطت الظلال فجأة.. رسوم متحركة سريعة الحركة، أخذت تتبلور وتتجمع: سيستمر النضال المسلح، وستشتد حدته، جنباً إلى جنب مع العمل الدبلوماسي، لأن الدولة لن تُمنح، إنما ستنتزع من العدو انتزاعاً..

كانت الصور في تناقضاتها تمثل كلا متكاملاً، يكمل بعضه الآخر.. وسرجون في غيبوبته حاضراً فيما يدور حوله.. ينتفض، يحدث نفسه "الدول العظمى كما الدول القريبة والصديقة تؤيد بقاء دولة الأقزام، وهي على استعداد لضمان حدودها، وقيام دولة صغيرة للعمالقة لن يكون إلا دولة صورية خاضعة للأقزام، في حين أن قيام دولة على ارض يتم تحريرها بالقوة، سيعطي دفعة جديدة وقوية للنضال.. فلماذا العجلة على إنشاء الدولة الصغيرة في تل الهوا!؟".

اختفى السؤال التعجبي فجأة وظهرت صورة طغت على كل الصور ولسان حالها يقول: المتطرفون هم مروّجو الانهزامية بين صفوف الثورة.. إنهم شعراء وعلماء بني لخم وبني لحيان، يؤمنون بالخير والشر، وكل شيء إلا أن يكونوا سياسيين.. وإذا كان من الممكن أن نستعيد جزءاً من وطننا بطريقة سليمة، فما الذي

يفرض علينا أن نلجأ إلى العنف!؟، وهل يتعين علينا أن نرزح تحت نير الاحتلال، أو في المنفي لعشرات الأعوام، إلى أن يتحول الموقف لصالحنا، لإقامة دولة موحدة وديمقراطية!؟

هب العملاق من غيبوبته واقفاً، اختفت الأصوات والصور المتحركة المتلاحقة.. وبعصبية راح يدق على الجدار ويصرخ: "نحن محاصرون كجرذان داخل جدران، فلماذا لا ندخل حدقات عيونهم!؟".

العرق يتفصد من جبينه ومن عينيه ومن وجهه.. ملامحه قوية متقطبة، تدل على أنه كان يتألم ويعاني.. عبس في وجه الزمن وقال: طريق النضال مستمرة، ولا بد من الوصول إلى كوكب الهوا وتحرير أمي الحبيبة، حتى لو رصفه الأعداء بالأجساد وعبدوه بالدماء.

تلك الليلة كان سرجون محاصراً بالأفكار.. يتمنى لو يصهر كل هذه التفاعلات في بوتقة واحدة ويحيلها إلى بندقية واحدة تنطلق في وجه العدو الذي أبى الاعتراف بوجوده.. بحقه في الحياة وتقرير مصيره.

****

معانـاة

لقد تعب العملاق وأتعبنا معه..

فـي صـمت الليـل الحـزين، كـان يرخـي العنـان لخيالـه متقمصـاً أجنحـة عقـاب جبلـي، يجـوب سماء الـوطن ويبحـث عـن فردوسـه، بعيـداً عـن الكواكـب العربيـة التـي أفسـدتها الروائح الكريهة وحمامات الدم والمؤامرات المتعفنة.

رجـف، فتـر فمـه عـن ابتسـامة، وإذ بعينيـه تنطقـان بمـا يجـول فـي صـدره مـن خـلال صـمته المعبـر: فـي غيابـك يـا أمـي، بحثـت عـن السـعادة، بحثـت عـن المعقـول.. لـم أجـد فـي العـالم مـن يحمينـي غيـرك.. وجـودك فـي أفكـاري أمضـى وأقـوى مـن أفكـارهم.. ومـع ذلـك لـم أسـتطع أن أحطم الأغلال عن معصميك..

لقـد عرفـتُ الطريـق، سأصـلك فـي نهـار سـاطع، فـلا تتعجلـي يـا أمـي.. المسـار شـاق، وأفكـارهم الرجعيـة شـوكات فـي أقـدام المسـيرة.. أمـا الـدماء النازفـة مـن هـذه الأقـدام، فهـي حنـة وأوسـمة فـي كـل المواسـم علـى صـدور مشاة القافلة الذين صمموا على أن لا تتوقف المسيرة..

إننـي حـزين يـا أمـي علـى الأفكـار التـي بـدأت تترسـب فـي أعمـاق القافلـة.. يقولـون لـي: عليـك أن تكـون واقعيـاً.. لمـاذا

لا تجرى مع التيار؟ وأسال نفسي إن كنت حقا أسبح ضد التيار؟ وإذا اندفعت مع التيار, فإلى أين سأصل ؟

يقولون إذا بقيت هكذا، فعليك أن تقبل العزلة..

لكي تحيا مع الآخرين، لابد من التنازل..

يقولون ستموت وحيداً, ولن تجد من يكفنك ويمشي في جنازتك..

صمت.. اجتاحته لحظة غضب، تأمل وانتفض انتفاضة الجريح وأضاف: لا أريد كفنا ولا مشيعين.. أريد أن أموت عارياً تحت وهج الشمس في أعلى القمم.. تأكل جثتي الصقور ووحوش البر, هذا أفضل وأهدأ لنفسي من صلوات الدجالين وقبور المتآمرين المظلمة.. إنني أتساءل ما هي أفضل طريقة للحفاظ على سلامة عقلي ليبقى محافظاً عليك يا أمي.. أينبغي أن أستجلبك كل ليلة، واستمر في محادثتك رغم أنني أعرف أنك أصبحت محض خيال..

فجأة تمطى خيالها أمامه، صرخت في وجهه: ماذا تقول يا سرجون! ألهذه الدرجة وصل بك اليأس؟ لقد أخبرتني أنك ذاهب لتعود بأقربائك.

- لقد أوهموني أن السعادة قابلية، وأن الشقاء عادة، واعتقدوا أنني شقي من يومي، متناسين أفراح وأمجاد أجدادي، وسعادتهم على أرضهم.. وأضافوا أني غير

قادر على تقبل المعاني الطيبة، ولا أملك القدرة على استقراء الجمال الذي يحيط بي.. لو كنت كذلك لعشقت السعادة الحقيقية يا أمي.. آه كم هم خبثاء يا أمي.. قالوا لي السعادة في الحب، وقدموه لي.. فوجدت نفسي آمل انتظار لا يأتي أبداً، وأنا بعيد عنك يا أمي الغالية.. لقد أفقدوني حبك الذي زرع العشق في صدري وبين أضلعي..

قطعت والدته فردوس عليه حبل استرساله وقالت:

- أقرباؤك لم يتخلوا عنك طالما وهم يعيشون معك على قمة المجد والخلود.. لكني لم أتصور كل هذا البعد والانتظار؟
- لقد تخلوا عني فعلاً يا أمي.. إنهم عاجزون تماماً مثل كلماتهم المحنطة والمتداولة والمعادة.. إنهم مخادعون، يعيشون مع أمجاد الماضي في لغز محير.. متناقضون، لا يعرفون أن حب الأرض كحب الأم كلاهما أرضعتنا بعصارة قلبها، وغذتنا بكل خيراتها.. إنهما كنزان في كنز واحد، لا هم له إلا العطاء.. رمز واحد لا رمزان، للعطاء وللخير.. حبهما ألفة تجلد فيه الأعماق.. انسجام وثقة متبادلة ودفق من الحنان يضيء الجوانح بالشوق والطهر والارتياح.. حب الأرض معاناة، لا احتراز فيها، ولا ابتذال.. وما سوى ذلك دعاء وزيف، وعاطفة

مشروخة مؤقته مصيرها الملل والانسراب في خلفية الزمن.

اندفعت فراشة تضيء عتمة الليل بألوان جذابة من نافذة غرفته، بدأت تحوم حوله.. كان راقداً مع تيارات نفسه غارقاً في وحدته.. سطع نور باهت في غرفته.. انشقت حجب الصمت، وانطلقت الهمسات تنير ظلمات المكان وتبدد وحشته.. الأضواء تتلألأ، تقفز عبر مخيلته، تتراءى له والدته من جديد، يتمتم، يحدث نفسه، يقول: كيف حالك يمه.. لقد اشتقت إليك..

أجابت بصوت حزين: افتقد في غيابك الحرية يا ولدي.. لقد نسيت مذاق الحرية.

- أنت أفقدوك مذاق الحرية، وأنا أفقدوني العقل يا أمي، لكني أعلم أن المجنون المدرك لجنونه هو أقرب إلى العقل، وأني لأتساءل كيف يتسنى لي الوصول إليك، والأقرباء هم الحاجز.
- أنت السبب يا وحيدي.. لقد قلت أنك ستعود، ورأيتك تزرع آمالاً كاذبة في عقول الناس..

انتفض وهب واقفاً، قال: آمال كاذبة!.. لقد علمتني الأيام إذا لم يبق لديك سوى الأمل.. فعليك أن تتعلق به.

- قلت أنك ستعود، فلماذا تأخرت!؟.
- أنا عائد، ولكن..

- لكن متى؟
- هذه الكتب.. هذه الأفكار اللعينة.. أني أرى بها حلاوة.
- ماذا أعجبك بها؟، إنهم يخدعونك.. ماذا علموك فيها!؟

الأرض يا وحيدي، من لها إن لم تعد إليها!؟

طأطأ رأسه، وأجاب بعد فترة صمت: أهلي والأقرباء يقفون في وجهي ويغلقون أبواب العودة..

- لا تيأس يا ولدي، عد إلى بيارتك.. مساحاتك وأرضك في انتظارك؟.

- لقد تعلمت يا أماه في جوانح الكتب المنمقة.. الأرض والمسحاة والبيارة، وكل هذه الأمور.. أشياء لا يمكن أن تتفق والأسر الذي أعيشه.

- هل علموك هذا في بطون الكتب؟

انتفض، صرخ فجأة وكأنه يستيقظ من حلم مرعب: لا، لا.. أنا ما زلت واقفاً، لم أسقط بعد.. ماذا يحاولون معي! هل أنا في حلم أم يقظة!، انتظريني يا أماه.. سأعود إليك عاجلاً أو آجلاً..

اقترب من الضوء، بدأ يدق الجدار بيديه.. يصرخ، يتألم.. يعاني.. يسقط على الأرض.. عيناه مفتوحتان، ينظر إلى سقف الغرفة.. يخوض التجربة.. صورة قذرة

ترتسم في مخيلته من جديد: ها أنت ترى ما تعلمته في بطون كتب بني لخم وبني يعرب، لم تعد تنفعك المسحاة.. أنساها.. انس فردوسك..

- لا، لا يمكن..
- كيف تقول ذلك وقد لمست قيمة الثراء بنفسك.. الحضارة تدعوك إلى النسيان، وهجر ما فات.
- ما قيمة الثراء الذي يعلمنا كراهية الأرض؟
- إنها الأرض البوار التي لا يمكن إصلاحها.. تعال معنا.. هاجر إلى بلاد الحضارة، أترك خيمتك التي انزويت فيها منذ سنوات عديدة.. ستركب سيارة، وتسكن شقة فخمة تضاء بالكهرباء.
- هذه أضغاث أحلام.. إن حلمي الوحيد هو العودة إلى فردوسي وكوكب الهوا.
- هذا مستحيل.. فأرضك انسلخت منك، وانسلخت عنا.
- لكن أمي ما زالت مسجونة بداخلها.
- إن أمك فردوس أصبحت كالتجارة على الأفواه.. تجارة رابحة لمن أراد الوصول إلى الكراسي الفخمة.. الحقيقة أنها انسلخت عنا منذ زمن، ولم يعد لمن يتاجر بها فائدة.
- لا تقولوا ذلك.. فأمي باقية ما بقيت.. إن أبناءها كثر وهي في انتظار الغائبين العائدين.. أنا أعرف أنكم تجار لا يهمكم إلا بضاعتكم، أما نحن المحرومون

فتجارتنا هي عودتنا.. وإن لم أعد أنا سيعود أخي.. سيعود ابني أو حفيدي أو ابن أخي.

- ألا تعرف كم قدمت لها من الأضاحي، ومع ذلك لا نراها تشبع من الدماء.. إنك لا تريد أن تفهمنا.
- لماذا لا تفهموني أنتم؟ أنسيتم أنني أبن الأرض، ولا بد أن أعود إليها وإلى أمي.. لن أتركهما وحيدتين يعبث بمصيرهما الأقزام.

سرجون كان مسمراً في أرضية الغرفة، يصرخ من جديد: عهداً يا أمي أني لن أتوقف مهما نزفت جراحي، ولن أضمدها إلا على يديك.. عهداً أني لن أهاجر وأتخلى عنك مهما كانت الإغراءات.. فانتظريني.. حين أحببتك "يا أمي" أحببت وجودي، وشعرت أن الحياة أحلى، وأن الزمان أسرع، وأن جوانحي معبد هندية فيها يحرق البخور، وتضاء الشموع، تتردد بأصوات أطفال في براءة الزهور، وتتجاوب بتغريد البلابل.. إنني أخبئ حبك تحت أهدابي.. به أكافح ومنه أستمد قواي.. انتظريني يا أمي.. فتلك الأرض التي يكسوها الحزن، وتتحجر في عيون صباياها الدموع.. تلك الأرض التي تقيمين فيها، ويخيم عليها الضباب.. سأعود إليها عاجلاً أو آجلاً.. عندها فقط، ستغمرها الأفراح، وينقشع الضباب.

***

النبـراس

بـدأت ملامـح القمـة تتضـح يومـاً بعـد آخـر، والعمـلاق يتبـع الشـاب الأسـطوري وكأنـه فـي حلـم.. انفـتح بـاب فـي الجـدار، سـطعت منـه أضـواء خافتـة، دار الجـدار بشـكل دائـري، ظهـر سـرير وعليـه رجـل عجـوز، يفتـرش فراشـاً ناصـع البيـاض.. أشـار العجـوز للشـاب أن ينصـرف ويغلـق الباب خلفه، ثم أومأ إلى سرجون أن يتقدم.

بصـمت الصـخور وثقلهـا تقـدم العمـلاق وحيـى العجـوز، جلـس علـى مقربـة منـه.. قـال العجـوز: إننـي أراك تسـتهلك نفسـك، وتـركض كشـأن الشـباب دائمـاً، أنـت الآن لـم تعـد كما بدأت..

لـم يتفـوه العمـلاق ببنـت شـفة.. آثـر الصـمت والاسـتماع.. أضـاف العجـوز: بـالأمس كانـت والـدتك فـردوس هنـا، هـي تعلـم أنـك سـتعود إليهـا وتحررهـا مـن قيـدها، لكنهـا حزينـة لموقفـك الوحيـد بـين مـن أرادوا الوقـوف فـي وجهـك، والحـؤول بينـك وبـين مـن تقبـع فـي قمـة أحزانهـا بانتظـارك.. إننـي مـا طلبتـك إلا لأن نهـايتي باتـت قريبـة.. لا تعتقـد أننـي سـأتركك، لا.. فروحـي سـتعيش مـع أحلامـك حتـى تتحقـق.. ستبقى حارسة لك، أمينة على أسرارك وأهدافك.

طريقك طويل وشاق يا ولدي.. وإن كنت انتظر من أقربائك بني لخم وبني لحيان أن يحموك ويساعدوك، فإني لم أر الطعنة إلا وقد سددت منهم.. تذكر أن طعناتهم لا تقتل.. فأنت ستصل إلى غايتك بصبرك وعزيمتك.. اشعر يا ولدي بذلك الحريق الذي يندلع في أعماقك قلقاً وعذاباً وحيرة وتمزقاً.. إنها ليست مأساة من وقفوا وما زالوا يقفون في وجهك.. ليست مأساة من جعلوك تهرب وتتألم، تعاني وتتعذب.. ليست مأساة الضحايا والدماء التي نزفت وما تزال تنزف.. لا، إنها مأساة جيل، أجيال.. مأساة شعب عرف كيف يختار طريقه، بعد أن تعثر في طرق حلول الأقرباء.. أولئك الذين ولدوا في عنق الزجاجة، وفي عنق الزجاجة ما زالوا يعيشون.. المشكلة الحقيقية هي كيف يستعيد هذا الجيل من الشباب الرؤية الصواب للأشياء، وأن يحدق في الحقائق بعيون لا يبهرها سطوع الحقيقة بعد أن عاشت قبل فترة الاغتصاب.. تلك الطلقة التي أيقظت النائمين على الوسائد المخملية.. حيث الطبول الفارغة، والقوالب الهشة.. المشكلة هي حالة جيل بأكمله من الشباب العربي، عاش الخديعة، الأكذوبة، وصدمته النكبة المروعة التي تحولت بحنكة السياسيين والشعراء إلى نصر يُحتفل به.. هذه المأساة، هي مأساة الجيل الذي أفاق ذات يوم، وإذ بالمغتصبين الأقزام يتيهون في أحداقه، ينغلون في أعماقه، يعطلون أنفاسه، ويدنسون

قدس أقداسه.. هذا الجيل الذي يعيش قمة أمجاده، أشعر أنه تخطى لحظة الإجهاض.. إنه يبدأ رحلة الحياة من جديد.. تلك الرحلة من الأمجاد التي بدأها الأجداد، وحملها الآباء، وبلغت ذروتها عند الأحفاد..

لا تفزع يا ولدي وأنت ترى خطواتك مضرجة بالدماء.. هذه الدماء هي علامات النضج في قمة الثورات.. لا تنظر ولا تلتفت إلى منمقي الكلام الفارغ، مدغدغي الكلمات العفنة المهترئة، المهزوزين التافهين.

إن هذا الشعب يثور لأنه يئس من الهدوء الذي أصبح يأساً في نظره.. لقد غيبوه طويلاً عن الوجود وهو قابع يلعق جراحاته الحزينة.. ويقول: لا، لكن "لا" لم تعد تنفع إن لم تكن مصحوبة بهزة أرضية ودمار.

لقد أصبحت الثورة نهراً من الحب يجري في عروق الأطفال.. والانتفاضة أصبحت تعي هدفها، وجودها، مصيرها، بدأ العالم يعيها، يفهمها، يتقرب منها.. أصبحت الواقع التاريخي لهذا الشعب، شكل بمفرداته جملة مفيدة أعلنها للملأ: أمه المجد عادت للحضور.

أن يثور هذا الشعب وينتفض.. أن يثبت حقه بكافة الوسائل التي يراها مناسبة.. يعني أن يقف في الصفوف الأمامية من هذا العالم..

أن يثور العمالقة.. يعني أنهم موجودون دائماً.

لا تجزع، ولا تخف.. الخوف يحول الإنسان إلى حشرة تبحث عن جحر أمان.. أريدك قوياً ناهضاً، كشجرة لا تكسرها الريح..

اليوم حين أتركك تصارع قدرك، لن أتركك وحدك.. روحي ستكون معك تحميك.. سأتحول إلى طلقات رصاص وفراشات ملونة تنير ظلماتك.. وتذكر أنك الوريث الصالح للقمة، تقود الشعب إلى طريق الخلاص، وتعود به إلى كوكب الهوا.

انتفض العجوز فجأة وهب رافعاً رأسه، ومن بين شفتيه المرتجفتين انطلقت الكلمات من جديد كالسهام: وطنك أيها العملاق، في حاجة إلى تلك القشعريرة التي تستأصل غُدد الجمود، والميلاد الذي يولد.. وطنك يطرد العملاء، ويقلص الرجعيين.

إن بوادر الإيمان أفاقت لتزرع الأمل.. استيقظت من أرض النور طلائع النور.. عليك أن تظفر بالطلقة لتحيلها إلى بسمة، وتغزل منها غدائر فرح، بدل الحزن والتأوه والوجيعة..

عليك بعقول المخططين، تلك عقول غير عقول الحالمين..

فجـــأة انقطعـــت الجملـــة الأخيـــرة، وارتجفـــت الشـــفاه، وسـقطت يـد العجـوز بـلا حـراك.. فـأيقن العمـلاق أن الشـيخ النبراس تحول إلى الخلود.

****

القمة الحزينة

لم تدم غيبة العملاق طويلاً، بعد ثلاثة أيام عاد بشكل غريب.. صامتاً كان، وعلامات من الحزن ترتسم على وجهه.

أضواء كثيرة كفراشات تضيء الليل انطلقت تلك الليلة وراحت تجوب الجبال تبحث عن سرجون، وسرجون حبيس غرفته، يلاحقه "رداد" بهراوته، وعلى حين غرة، يهوي بهراوته على رأسه..

تلك الليلة صرخ رداد وهو ينسل من غرفة سرجون قائلاً: لقد قتلته.. أرحتكم منه..

وقفنا مشدوهين نرقب رداد الذي راح يخطو نحو القيعان، يحمل هراوته ويرافقه أحد المهزومين قائلاً: لقد انتهت مهمتنا، ولم يعد لنا عمل.

بقينا ثلاثة "أضاف عمران".. وقف الاثنان ينظران للعملاق ببلاهة، بينما تقدمتُ من العملاق أحس نبضه.. كانت الحياة تملأ أنفاسه.. استبشرت خيراً، وحاولت بكل طاقاتي مساعدته..

حين أفاق من غيبوبته، نظر إلى السماء، وحدق في طائر يبسط جناحيه في الأعالي وابتسم، وقبل أن ينطق بحرف ظهر رداد ثانية بيننا صارخاً: ألم يمت بعد؟!

نظرتُ إليه.. شاهدته بشكل غريب.. لحيته كثة، وجهه محروق، قامته قصيرة بثياب باليه، وبالكاد استطعت التعرف عليه..

انحدر عن القمة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وفي غضون ساعات قليلة، عاد وكأنه ابن التسعين عاماً.. سألته بدهشة: ما الذي غيّرك؟.

حملق في وجهي وقال: رفيقي تحطم وانسحق عند قاع القمة بعد نزولنا مباشرة من هنا.. وعندما بدأت ملامحي تتغير، والعجز دب في أوصالي أيقنت أنها النهاية.. لكني لن أندثر قبل أن أعيد سرجون إلى عالم العدم مثلي..

وكمن فقد عقله، اندفع وهوى بهراوته الغليظة على العملاق ثانية وهو يتابع: هيا قم ازحف أمامي إلى المنحدرات حتى تموت معي..

أتبع ضربته بأخرى، فتهالك العملاق وتكور على جسده، ثم راح يترنح تحت ضربات رداد.

حاولتُ فض الاشتباك، فسقطت عصا رداد بقوة على رأسي، ولم أشعر إلا وأنا طريح الأرض.. فجأة انتصب العملاق والعرق يتفصد من جسده، بدأ وكأنه صفحة من

الزجاج المبتل.. وما لبث أن هوى بقبضته على رداد، فأسقطه عن القمة إلى المنحدر.. ارتطم رأسه بصخرة.. تفجر ينبوع من الدماء.. زفر بقوة، ثم هوت أشلاؤه تتسابق إلى الحضيض.

حين صحوت تماماً، شاهدت العملاق ينظر إلى القمة المقابلة، ويقسم أنه لن يبرح قمته هذه وعليها خائن.

***

في لحظة العدم التي اخترقت كياننا، وفي زمن الاجترار للتاريخ المعادي للشعوب.. قررنا التخلي عن مبادئنا، عن أصولنا العريقة، عن امتنا النابضة بذكريات الأمل والحب والنضال حتى الموت.. قررنا التخلي عن العملاق، واعتقدنا أن في الانحدارات نحو القيعان نهاية المعجزة.. هرولنا نحو المنحدرات، ورحنا نجذف عكس التيار..

كان القرار جماعياً.. ثلاثتنا وافقوا على الهبوط.. وحين تحقق للعملاق ما عزمنا عليه.. انتفض انتفاضة اليائس من يومه، الآمل في غده، وانزوى في حجرته يعاني.. وفي اللحظة التي بدأنا ننحدر بها نحو القيعان، ظهر العملاق فجأة.. في جبهته قرار، وفي عينيه دموع.. خيم صمت الهزيمة للحظات على عقولنا، أمتد

ليشمل بقية أجسادنا ويغزوها.. أحنيت وجهي إلى الأرض، وتمنيت في قرار نفسي أن تنشق وتبتلعني قبل أن أخطو خطوة واحدة.

اندفعت كلمات، وتدفقت معان من العملاق تهز أعماقنا، وتنير طريقنا، تحدث كثيراً.. وكانت من عادته أن يؤثر الصمت المعبر على الكلام، لكنه لم يستطع السكوت هذه المرة.. وكشلال يتساقط ماؤه من الأعالي، يحطم صخور المنحدرات ويفتتها.. اندفعت كلمات العملاق تحرك الأغصان، وتقصر المسافات المتباعدة بين العقول: لقد كنتم وما زلتم في الأعالي.. فلماذا تختارون مع الفراق الحضيض!..

عودوا يا إخوتي، لنستبدل بالفراق لقاء، بالدمعة بسمة، وبالصمت طلقة معبرة..

لقد جمعنا القدر على قمة المجد.. فلماذا تخونوا زمنكم؟ وتسمحوا لشياطينكم أن تتحكم في مصائركم؟.. لماذا تسمحوا لأنفسكم بالسقوط إلى القيعان؟.. لماذا تهبطوا ؟ وتدفعوني إلى الاندثار تحت عجلات الزمان؟

إن القمم بشموخها، لتتهاوى حزناً على سقطاتكم، إنني حزين كحزن القمة المتعالية بكم، المنحدرة بعدكم.. فلا تتركوني مع قلعتي حزيناً أذرف الدموع التي لن يوقفها

إلا محبـتكم ووقـوفكم جـانبي، حتـى أسـتطيع العـودة إلـى كوكب الهوا وتحرير أمي من قيدها..

أحبـائي.. سـأبقى فـي انتظـار محبـتكم، قلـوبكم، ضـمائركم، أيـديكم، لتنصـروني وتشـدوا مـن أزري، حتـى يعـود الحـق، وترتفع إلى الأعالي قامة الإنسان.

خفت الصـوت ونحـن ننحـدر، لـم نعـد نسـمع العمـلاق، ولـم نصح إلا ونحن في القيعان.

****

العودة

تابع العجوز عمران ما تبقى من حكايته:

لقد نجح الغرس، وأثمرت التجربة.. ثورة في نفوسنا، وانتفاضة في أعماقنا.. لشد ما كان الصراع مع ضميري يعلو إلى قمته الشامخة، فيثقب عالمي النفسي ويحطمه، ثم يعيد بناؤه من جديد، ويتأهب ليصعد به ثانية إلى قمة المجد.

لقد شعرت بالوحدة في عالمي الحزين بعد أن غادرت القمة متهاوياً إلى السفح.. بدأت أعاني من التجربة، أتألم.. وحين انسحقتُ إلى القاع.. بدأت الدنيا تظلم في عيني، وبدأ حبل الندم يعتصرني، ويشدني إلى الأعالي..

حين نزلتُ إلى القيعان، شعرت باليأس، بالندم، بالخوف، بالذل والاحتقار.. غادرني شبابي وكبرتُ فجأة مرة واحدة، بين ليلة وضحاها أصبحت عجوزاً ينتظر نهاية أنفاسه على وجه هذه الأرض.. لكني سأعود إلى القمة، أناصر العملاق، وأمهد له طريق العودة قبل أن تنقطع صلتي بالحياة الفانية.. أشعر أني اهتديت إلى الطريق، عرفت قيمة القمة التي كنت أعاني منها وأحاول الابتعاد عنها.. عرفت معنى الخلود وقيمة التضحية في سبيل الوطن.

***

قال له أبو الشباب وقد رآه يهرم دفعة واحدة..

- هل هذا قرارك النهائي؟.

قال الشيخ عمران: بل حياتي المستقرة في العمر الباقي..

شعر أبو الشباب أن عمران يتألم، يرثي في قرار نفسه الأناس الذين تركهم رغماً عن إرادته.. يفكر بلقائهم، وكيفية العودة إليهم، والعمل معهم من جديد.. يفكر بالكيفية التي يستطيع أن يثبت بها وجوده معهم..

كان مقتنعاً بما يقول.. أقنعته التجربة، والرؤيا حين عاش في أوج قمة المجد.. نظر إلى أبي الشباب نظرة المتفحص وأضاف:

"أنظار العالم كانت تتابع خطوات العملاق، تتطلع إليه، لأنه رسول خير، لأنه الكلمة المعبرة والطلقة الشجاعة التي تنطلق من أفواه العرب الشرفاء إلى مسامع العالم.. لقد حمل السلاح، وكف عن المهاترات.. كان جريئاً، العقل كان يحكمه.. ينطلق كالسهم، كالريح، كالعاصفة في كل الأجواء والاتجاهات.. يعطي من نفسه دفقاً لغيره، لا مطمح ولا جاه شخصي لنفسه.. يعمل لأمته، لوطنه، لبلاده ولعروبته.

كشعبه كان العملاق قوياً.. يوقظ الهمم، وينبه الأذهان.. ينبهنا إلى أننا الأقوى إذا تكاثفنا، وشددنا أيدينا، وضربنا بقبضة واحدة، وطلقة واحدة".

توقف العجوز عمران عن الحديث فجأة، ثم أضاف بعد لحظة صمت:

"إن هذا العملاق يبدد اليوم الدعايات، أباطيل ومؤامرات وخدع المغتصبين الأقزام في هذه الدنيا العريضة التي سيطروا عليها بأكاذيبهم، وأضاليلهم الأخطبوطية.. إنه عملاق، من أبناء الشعب العمالقة الجبارين".

قال أبو الشباب وقد عزم أن ينهي حكاية العجوز:

- إذا كان الندم قد حل محل ملابسك، فلماذا لا تختصر الزمن، وتعود تائباً، تشيد درع المسيرة مع العمالقة من جديد؟.
- أنا عائد، لكن القدر أراد لي أن أقابلك قبل عودتي، لأزيل عن كاهلي حكايتي.. إنني ماض إلى رغبتي لأتجدد في الحياة.
- كيف ستعود لنصرته، وأنت تعرف أنك هويت عن القمة، وانتهى شبابك!؟

نظر عمران إلى أبي الشباب نظرة عتاب وقال:

- لن أجبن بعد اليوم، ولن أعود إلى المعارك الجانبية الخداعة.. لقد عشت التجربة، وعرفت قيمة الحب وحياة الخلود.. إن عودتي إليه وحدها كافية لنصرته، ولإبقاء الذين على القمم في قممهم.. أحذرهم من السقوط، وأعينهم على مسيرتهم.. سأخبر الباقين عن تجربتي في السقوط، عن خذلان النفس وانكسارها، وأنذرهم من مغبة الشرود ومطاردة الأهواء.

كانت كلمات عمران تشمخ إلى الأعلى كقمة رأسه، فطفق أبو الشباب يتأمله ويودعه بنظراته، يرقبه وهو يبتعد باتجاه الجبل الشامخ البعيد، حيث الطريق السري المؤدي إلى استعادة الشباب في قمة المجد والخلود.

****